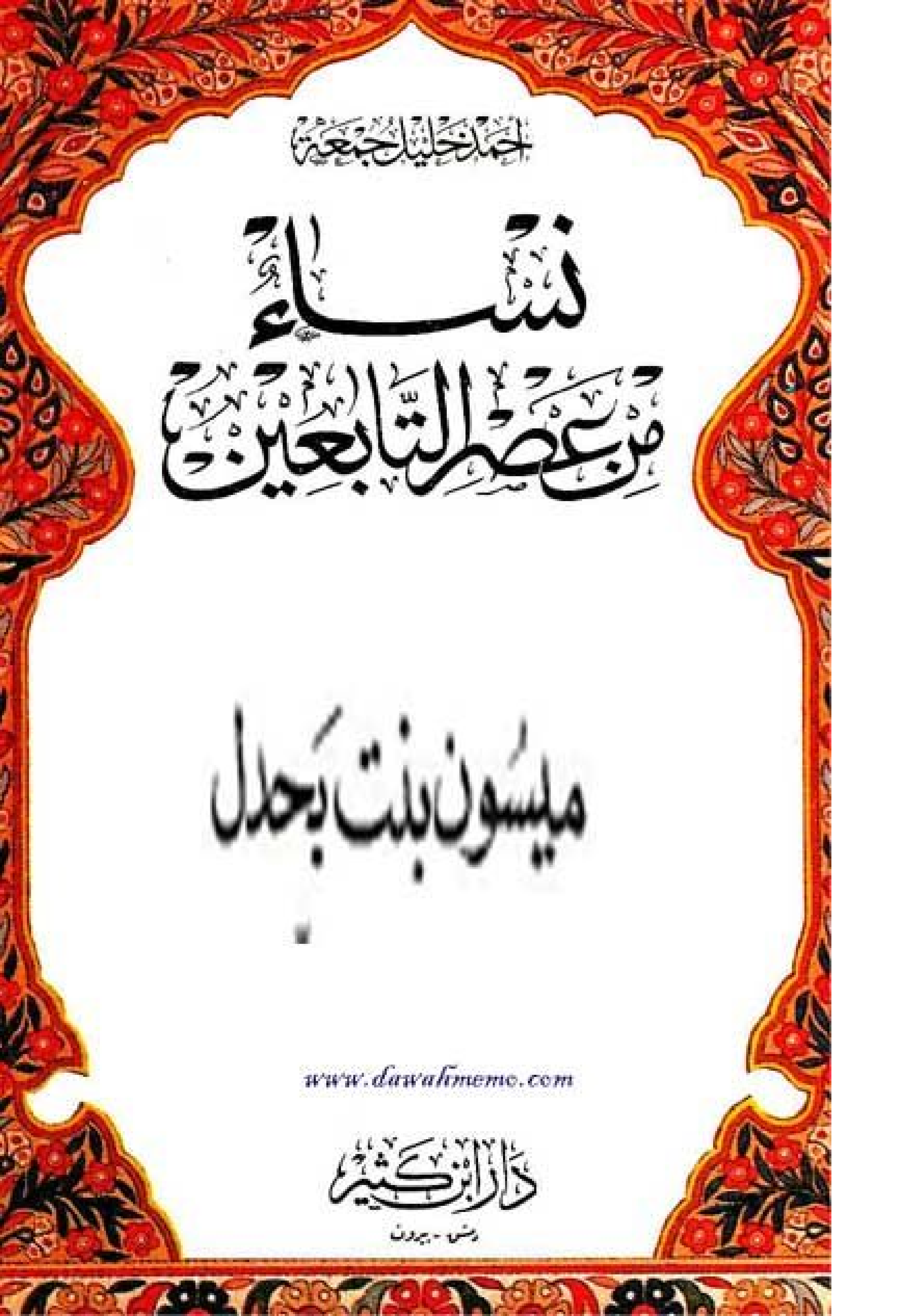


أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
ميسون بنت بحدل
www.dawahmemo.com
دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(٣)

ميسُون بنت بَحدل

• قال ابن كثير :

كانت حازمة ، عظيمة الشأن : جمالاً ورياسة وعقلاً وديناً .

مَيْسُونُ بنْتُ بَحْدَل الكلبيّة

صِفَاتٌ فَاضِلَةٌ :

* امرأةٌ ارتقتْ إلى أسباب الشُهرة في اليوم الذي انتقلتْ فيه من بداوتها إلى قصور الأمراء والخلفاء ، فكانت من عداد النِّساء التَّابعيات الفَاضلات .

* كانت إحدى فرائد قومها ومعدوداتهن جمالاً وشرفاً ، ولكنّها بما أنعم اللهُ عليها منْ عقل كبير ، ورأي صائب ، وأدبٍ وفَضْل ، كانت من أشهرهن في دنيا التَّاريخ وفي تاريخ الدنيا .

* وَصَفَها الحافظُ ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ فقال : كانت ـ امرأة ـ حازمة ، عظيمة الشَّأْنِ جمالاً ورياسة وعقلاً ودِيْناً[1] .

* وهذه الصِّفاتُ الموجودة في هذه المرأة تجعلها في مقدمة النِّساء اللاتي خلّد الدَّهر مقاماتهن ، ورسم فضلَهن ، وقيّد آثارهن ، وحفظ مقالاتهن في سجلِهِ الكبير ، فحزن بذلك الخلود ، وكن القدوة الصالحة لمن أتى بعدهن من النساء .

* أورد ابنُ عساكر ترجمتها فقال : مَيْسون بنتُ بَحْدل[2] بن أنيف

(١) البداية والنهاية (١٤٨/٨) .

(٢) « بَحْدل » : مالت كتفه وأسرع في المشي ؛ والبحدلة : الخفة في السّعي .

الكلبيّة ـ من بني حارثة ـ زوج معاوية بن أبي سفيان ، وأمُّ يزيد بن معاوية ، روت عن معاويةَ ، وروى عنها محمّد بن علي[1] .

* * *

اللبيبَةُ النَّبِيْلَةُ :

* لما اتصلتْ ميسون بمعاويةَ رضي الله عنه ، وجاء بها من البَدْوِ ، وكانت ذات جمال باهر ، وحُسْن غامرٍ ، وعقل متوقّد ، وبصيرةٍ نافذة ، فأنزلها منزلةً لائقةً ؛ لِدِيْنِهَا ورجاحة عقلها ؛ ومما ظهر له منها من كمال الخصال ، وإصابة الرأي ما ذكرته المصادر من أنَّ زوجها معاوية دخل عليها يوماً ، ومعه خادم خصي له ، فاستترتْ منه وقالت : ما هذا الرَّجل معك ؟ فقال : أتستترين منه ؟ إنّه خصيٌّ ، وإنّما هو مثل المرأة فاظهري عليه ! .

فأجابته إجابةً حكيمةً فقالت : أترى أنَّ المُثْلة تحلُّ ما حرَّم الله عليه ؟ وفي رواية أنّها قالت له : إنَّ مجرَّدَ مُثْلتك له تحلّ ما حرّمه الله عليه ؟! ثمَّ حجبتْهُ عنها[2] .

---

(١) تاريخ دمشق (ص ٣٩٧) . ومحمد بن علي لعله محمّد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ، وهو أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام ، ولد سنة (٢١ هـ) بالمدينة ، وهو أخو الحسن والحسين لأبيهما ، وأمّه خولة بنت جعفر الحنفية ، يُنسب إليها تمييزاً له عنهما . وكان واسع العلم ، ورعاً ، أسود اللون ، وأخباره كثيرة . توفي بالمدينة سنة (٨١ هـ) . عن الأعلام (٦/٢٧٠) مختصراً .

(٢) الحيوان للجاحظ (١/١٧٧) ، وتاريخ دمشق (ص ٣٩٧) ، والبداية والنهاية (٨/١٤٨) ، وبهجة المجالس للقرطبي (٢/٤٥) .

* وأُعجب معاوية بهذه الإجابة التي تدلُّ على فقهها وعلمها ، وسُرَّ بها سروراً عظيماً ، وازداد بها عجباً وإليها ميلاً ، ولهذا أولى الله ابنها يزيد بالخلافة بعد أبيه .

* وبمثل هذه الخصال اللطيفة الحميدة ، كانت ميسون من أشهر نساء معاوية ، وقد ولدت له ابنه يزيد ، وذكر بعض أهل الأخبار أنّها ولدت له ابنة اسمها : أمة ربِّ المشارق ، فماتتْ وهي صغيرة[1] .

* * *

فِرَاسَتُهَا وذَكَاؤُهَا :

* تدلُّ الأخبارُ التي وصلتنا عن ميسون ـ رحمها الله ـ أنّها كانت ذات فراسة نادرة المثال في غيرها من النِّساء ، وكان سيّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ يأنسُ إليها ، ويأخذ برأيها ؛ لما عهد فيه من سلامةٍ وصحة ، فعندما تزوّج معاوية نائلة بنت عمارة الكلبية قال لميسون : ادخلي فانظري إلى ابنةِ عمّك ، فدخلتْ ونظرتْ إليها ، فسألها عنها قائلاً : كيف رأيتها ؟ قالت : إنّها لكاملة الجمال ، ولكنْ رأيتُ تحت سرّتها خالاً ، وإنّي لأرى هذه يُقتل زوجها ويُوضع رأسه في حجرها ، فتطيّر من ذلك فطلّقها ، فتزوجها بعده حبيب بن مسلمة الفِهْري ثم طلّقها ، ثم خلف عليها بعده النُّعمان بن بشير الأنصاري ، فقُتل ، ووضع رأسه في حجرها[2] .

---

(١) الكامل في التاريخ (٤/١٠) .

(٢) عن تاريخ الطبري (٣/٢٦٤) ، والأغاني (١٤/١١٩) ، والبداية والنهاية (٨/١٤٨) بتصرف يسير .

* وبهذا كانت ميسون صاحبة فراسة صائبة ، إذْ وقع ما كانت تتوقّعه في نائلة بنت عمارة الكلبية .

* * *

مَيْسُون وابنُهَا يَزِيْد :

إنَّ يزيد خير شبّان العرب
أحلمُهم عند الرّضى وفي الغضب
يبدو بالبذْلِ وإنْ سيلَ وهب
تفديه نفسي ثمّ أمّي وأب
وأسرتي كلّهم منَ العطب[1]

* بهذا الشّعر ، وبمثله ، كانت ميسون بنت بحدل ترقّصُ ابنها يزيد بن معاوية وهو صغير ، حيث كانت ـ بفراستها ـ تتوسمُ فيه النّجابة والحلم والكرم ، وغير ذلك من الشّمائل التي تخلّد النّاس ، وتجعلهم في مصافّ الأعلام الخالدين .

* لذا فقد كانت ميسون ترعى ابنها رعايةً خاصة ، وتربّيهِ على حبّ الفضيلة ، ولعلّ عنايتها به ترجعُ إلى أنّها رأتْ في المنام ـ وهي حامل به ـ أنّه خرج منها قمر ، فقصّت رؤياها على أمّها فقالت : إنْ صدقتْ رؤياك لتلدنّ مَنْ يُبايَعُ له بالخلافة[2] . وظلّ هذا الحلم يراودُها حتى ولدتْ يزيداً .

---

(١) المنمق في أخبار قريش لابن حبيب (ص ٣٤٩) .
(٢) البداية والنهاية (٨/٢٣٠) .

* وجلستْ يوماً تمشط وتزيّن ابنها ، وكان أبوه معاوية مع زوجته الحظية عنده في المنظرة ــ وهي فاختة بنت قرظة ــ فلما فرغت ميسون من مشطه ، نظرت إليه فأعجبها فقبّلته بين عينيه ، فقال معاوية عند ذلك :

إذا مـاتَ لم تفـلحْ مُزينـة بعـده
فنـوطي عليـه يا مزين التّمـائما[1]

وانطلق يزيد يمشي وفاختة تتبعه بصرها ، ثم قالت : لعن الله سواد ساقيْ أمّك .

فقال معاوية : أما والله إنّه لخيرٌ من ابنك عبد الله ــ وهو ولده من فاختة وكان أحمق ــ فقالت فاختة : لا والله ، لكنّك تؤثر هذا عليه . فقـال : سوف أبيّن لكِ ذلك حتى تعرفينه قبل أنْ تقومي من مجلسكِ هذا .

* ثم استدعى ابنها عبد الله فقال له : إنّه قد بدا لي أنْ أعطيكَ كلَّ ما تسألني في مجلسي هذا .

فقال : حاجتي أنْ تشتريَ لي كلباً فارهاً ، وحماراً فارهاً .

فقال : يا بني أنت الحمار وتشتري لك حماراً ؟! قم فاخرج .

ثم قال لأمّه : كيف رأيتِ يا بنت قرظة ؟ .

* ثم استدعى ابن ميسون يزيد فقال : إنّي قد بدا لي أنْ أعطيك كلَّ

(١) « نوطي » : علقي .« التمائم » : جمع تميمة : العقد في العنق ، أو ما كان يوضع حذر الحسد أو العين .

ما تسألني في مجلسي هذا، فسَلْني ما بدا لك. فخرَّ يزيد ساجداً، ثم قال حين رفع رأسه: الحمد لله الذي بلَّغ أمير المؤمنين هذه المدة، وأراه في هذا الرأي، حاجتي يا أمير المؤمنين أنْ تعقدَ لي العهد من بعدك، وتوليني العام صائفة المسلمين، وتأذن لي في الحج إذا رجعت، وتوليني الموسم، وتزيد أهل الشـام عشرة دنانير كلّ رجل في عطائه، وتجعل ذلك بشفاعتي، وتعرض لأيتام بني جمح، وأيتام بني سهم، وأيتام بني عديّ.

فقال معاوية: ما لك ولأيتام بني عديّ؟.

قال يزيد: لأنهم حالفوني وانتقلوا إلى داري.

فقال معاوية: قد فعلتُ ذلك كلّه.

وقبَّلَ وجهه، ثم قال لفاختةَ بنتِ قرظة: كيف رأيت؟.

فقالت: يا أمير المؤمنين أوْصِهِ بي، فأنتَ أعلمُ به مني[1].

* * *

حنينُها إلى البادِيَةِ:

* على الرّغم منْ أنَّ ميسون اشتهرت بالفصاحة والبيان، وعلى الرّغم من أنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ كان يجلّها ويحترمها، إلا أنَّ هذا لم يمنعْ ميسون من الحنينِ إلى مرتع طفولتها في البادية، وتكثر من ذِكْر أهلها وحياتهم البسيطة وصفوِ عيشهم، وبعدِهم عما يكدرهم، وتزهدُ في القصور العالية، والسُّررِ المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنّمارق

(١) البداية والنهاية (٨/٢٣٠) بتصرف يسير جداً.

المصفوفة ، والزَّرابي المبثوثة ، وكلّ آيات البهجة المَدَنيّة ، وكرهتِ الحضارة والتّمدُّن وسُكنى المدينة .

* ففي كتـابه اللطيف الظّريف « حياة الحيوان » أورد الدّميري ـ رحمه الله ـ أنّ سيدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ قد هيّأ لميسون قصراً مشرفاً على الغوطة ، وزيّنه بأنواع الزّخارف ، ووضع فيه من أواني الفضة والذّهب ما يضاهيه ، ونقل إليه من الدّيباج الروميّ الملوّن والموشى ما هو لائقٌ به ، ثم أسكنها مع وصائفَ لها كأمثال الحور العين ، فلبست يوماً أفخر ثيابها ، وتزيّنتْ وتطيّبتْ بما أعدَّ لها من الحليّ والجوهر الذي لا يوجد مثله ، ثم جلستْ في روشنها(١) وحولها الوصائف ، فنظرت إلى الغوطةِ وأشجارها ، وسمعت تجاوب الطير في أوكارها ، وشمّت نسيم الأزهار ، وروائح الرّياحين والنّوار ، فتذكرت باديتها وحنّتْ إلى أترابها وأناسها ، وتذكرت مسقط رأسها فبكت وتنهّدت ، فقالت لها بعض حظاياها : ما يبكيكِ وأنتِ في مُلْكٍ يضاهي ملْك بِلْقيس ؟ ؛ فتنفّستِ الصُّعَداء ، ثم أنشدت :

لبيتٌ تخفق الأرْواح فيهِ
أحبّ إليَّ من قصرٍ منيفِ
وبَكْرٌ يتبعُ الأظعانَ سقْباً
أحبّ إليَّ من بَغْلٍ زفوفِ(٢)

---

(١) « روشنها » : الروشن : الشُّرْفة .
(٢) « البَكْر » : الفتي من الإبل . و « السّقْب » : الذّكر من ولد النّاقة . « زفوف » : مسرع .

وكلبٌ ينبح الطّراق عني
أحبّ إليّ من قطٍّ أليفِ
ولبسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني
أحبّ إليّ من لبس الشّفوفِ [1]
وأكل كُسيرةٍ في كِسْر بيتي
أحبّ إليّ من أكْلِ الرّغيفِ [2]
وأصواتُ الرّياح بكلّ فجٍّ
أحبّ إليّ من نَقْرِ الدُّفوفِ
وخِرْقٍ من بني عمي نحيف
أحبّ إليّ من عِلْجٍ عليفِ [3]
خشونة عيشي في البدو أشهى
إلى نفسي من العيش الطّريفِ
فما أبغي سوى وطني بديلاً
فحسبي ذاك مِنْ وطنٍ شريفِ

فلما دخل معاوية عرَّفته الحظيّة بما قالت ، وقيل : إنّه سمعها وهي تنشدُ ذلك فقال : ما رضيتْ ابنة بَحْدَل حتى جعلتني عِلجاً علوفاً ، هي طالق ، مُرُوها فلتأخذْ جميعَ ما في القصر فهو لها ، ثم سيّرها إلى أهلها

---

(١) « الشّفوف » : جمع شف ، بكسر الشّين وفتحها ، وهو الثوب الرّقيق ، سُمي بذلك لأنه يشفُّ ما وراءه .

(٢) « الكُسَيرة » : القطعة من الخبز . و « الكِسْر » : طرف الخباء من الأرض .

(٣) « الخِرْق » : الفتى السّمح الكريم . « العلج » : الشّديد ، وبه سمي حمار الوحش ، تقصد بذلك معاوية .

بالبادية ، فأخذت معها ابنها يزيد ، فنشأ في البريّة فصيحاً[1] .

* ونقل البغداديُّ ـ رحمه الله ـ في « خزانة الأدب » أنَّ معاوية لما طلقها قال لها : كُنْتِ فَبِنْتِ ؛ فأجابته : ما سُرِرنا إذْ كُنّا ، ولا أَسِفْنا إذْ بِنّا[2] . ولله درّ القائل حيث أشار إلى هذا في قوله :

وحبّبَ أوطانُ الرِّجالِ إليهمُ
مآربَ قضّاها الشّبابُ هنالكا
إذا ذكروا الأوطانَ ذكّرتهمُ
عهودَ الصِّبا فيها فحنُّوا لذلكا[3]

---

(١) حياة الحيوان (٢/٢١٢) بتصرف يسير جداً . وانظر الحماسة الشجرية (٢/٥٧٣ و ٥٧٤) ، وتاريخ دمشق (ص ٤٠٠ و ٤٠١) ، وشاعرات العرب (ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧) ، والأعلام (٧/٣٣٩) .. ولعلَّ هذه القصيدة التي أوردها كُتّاب التّراجم هي السّبب في شهرة ميسون بنت بحدل ؛ لأنّها منثورة في كتب الأدب أيضاً وكتب التّاريخ ، وبعضها من الشّواهد النّحوية عند أعلام النّحاة ، ولكنْ من حقّ الأمانة علينا أنْ نقدّرَ هذه المرأة التي تُعتبر في مصافّ التّابعيات ـ فهي زوجة صحابي ـ وراوية للحديث ، من ذلك الحديث الذي روته عن زوجها معاوية أنَّ النبي ﷺ قال : « سيكون قوم ينالهم الإخصاء فاستوصوا بهم خيراً » (تاريخ دمشق ص٣٩٧) هذا ، وإنَّ احتفاظَ الكُتُب بمقالاتها ونتف من أقوالها ، لدليلٌ على مكانتها ، ودليل على فضلها عن غيرها ممن عاصرها من نساء الخلفاء ـ رحمها الله ـ .

(٢) خزانة الأدب (٣/٥٩٣) .

(٣) أورد الشّيخ محيي الدّين بن العربي ـ رحمه الله ـ في كتابه اللطيف النّفيس (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ٢/٧٠) خبراً جميلاً يشبه قصة ميسون بنت بحدل ، فذكر أنَّ بعضَ الخلفاء تزوّج بنتاً من بناتِ الأعراب ، ونقلها من البادية إلى قصْرٍ على شاطئ دِجْلة ، فتغيّر عليها الحال ، وكانت تحنُّ إلى ما نشأتْ عليه ، فبنى لها هذا القصر ، وأَمَرَ بالإبلِ والغنمِ أنْ تُحلَبَ بكرةً وعشية على باب قصرها في البرية ، =

* ومن طريف ما يروى عن طلاق ميسون ، ما ذكره ابن حبيب البغدادي قال : كان معاوية ـ رضي الله عنه ـ قد طلّق ميسون ، فأتاه محمّد بن حاطب الجُمَحيّ ـ وكان أحمق ـ فقال له معاوية : ما حاجتك يا بن حاطب ؟ .

قال : جئتُ خاطباً .

قال : ومَنْ ذكرتَ ؟! .

قال : ميسون بنت بحدل الكلبيّة أمّ يزيد .

فسكتَ معاوية . قال : ما تقول يا أمير المؤمنين في هذا ؟ .

قال : أقول : إنّك حمار . فخرج من عنده فما زال يقول : قال : إنّك حمار ، قال إنّك ... حتى دخل إلى منزله[1] .

* وامتدتِ الحياةُ بميسونَ ، وعاشت إلى نحو سنة (٨٠ هـ) ـ رحمها الله ـ .

= فأنست بعض الأنس ، فدخل عليها الخليفة يوماً وهي تبكي وتقول :

وما ذنبُ أعرابيةٍ قذفتْ بها ... صروف النّوى من حيث لم تكُ ظنّتِ

تمنّتْ أحاليبَ الرُّعاة وخيمة ... بنَجْدٍ فلم يُقْضَ لها ما تمنّتِ

إذا ذكرتْ ماءَ العُذيبِ وطِيبَه ... وبَرْدَ حصاه آخرَ اللّيلِ حنّتِ

لها أنّةٌ عند العشاءِ وأنّةٌ ... سُحيراً ولولا أنّتاها لجُنّتِ

فذُكر أنّه قال لها : الحقي بأهلك بكل ما معك ، فسرتْ بذلك ولحقتْ بأهلها .

(١) المنمق في أخبار قريش (ص ٣٩٠ و ٣٩١) .

* وبعد ، فهذه شذراتٌ مِنْ سيرة امرأةٍ في عصر التَّابعين كانت في الذّروة والسّنام من الإعزاز ، وأصبحت زوجة خليفة تجر أذيال النعمة بين خدمها ووصائفها ، ولكنَّ ذلك النَّعيم لم يؤثِّر في شيءٍ من نشأتها ونقاءِ فطرتها ، ولا صفاء طبيعتها ، فأصبحتْ في سجلِّ الخالدات .

* رحم الله ميســون بنت بحدل ، وأجزلَ لها المثوبة ، وأنزلها مع الأبرار .

* * *